التغيرات المناخية والنساء
رؤية سوسيو-جندرية
مجرد محاولة

تصدر عن المبادرة الشعبية « عالم بالألوان »
اعداد : ممدوح مكرم - باحث في العلوم السياسية

أصبح التغير المناخي ظاهرة ذات أبعاد معقدة ومتشابكة، ولم يعد محل دراسة تلك الظاهرة علم المناخ أو جغرافية المناخ، بل فتحت الطريق لتخصصات وفروع علمية كثيرة في الإنسانيات مثل: العلوم السياسية- الاجتماع- الاقتصاد- والأنثروبولوجيا...إلخ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اتجه إلى دراسة أثر التغيرات المناخية من منظور رؤى ونظريات الجندر (النوع)؛ وأصبح التغير المناخي ليس فقط محط اهتمام الحركات الخضراء (البيئة) بل امتد للحركات النسوية، وذلك من خلال رصد أثر التغيرات المناخية على النساء وبالأخص في العالم الثالث.

في هذه الورقة نقدم طرحاً للتغيرات المناخية وانعكاساتها على النساء تحديداً، واصلين ذلك برؤية سوسيولوجية (اجتماعية للتغيرات المناخية) وذلك عبر النقاط التالية:

أولاً: ماذا يعني التغير المناخي؟

ثانيا: الإطار الاجتماعي للتغير المناخي (كيف يؤثر المناخ على وضعية البناء الاجتماعي في المجتمع؟)

ثالثاً: لمحة سريعة عن التركيبة الاجتماعية في مصر.

رابعاً: وضع النساء عموماً في ظل البناء الاجتماعي السائد فى مصر.

خامساً: كيف يؤثر المناخ على النساء فى مصر؟

سادساً: خاتمة.. (خلاصة وملخص مكثف، مع محاولة وضع تصور للخروج من هذه المشكلة)

*تمهيد

العلاقة بين الإنسان والطبيعة، علاقة جدلية منذ قديم الأزل، والإنسان جزءٌ لا يتجزأ من الطبيعة، وعندما كانت قوى الإنتاج وأدوات الإنتاج متخلفة أو بدائية، فآثارها لم تكن بهذا الشكل المدمر حتى اكتشف الإنسان البخار في القرن الثامن عشر، وبدأ التقدم التقني يؤثر على الطبيعة بشكل مباشر؛ ما أدى إلى تهديد كثير من الأنواع الحية (نباتية وحيوانية) بالفناء والزوال (وإنْ كان بعضُها قد اِنمَحى بالفعل واندَثر).

ومع التطور الهائل في مستوى العلوم والتقنية، ومع نَهم الرأسمالية الصاعدة إلى الربح، زادت المخاطر التي تهدد البيئة الطبيعية، ومنها ظاهرة التغير المناخي التي تؤرق عقول وقلوب العلماء، والمهتمين بالبيئة والفلاسفة الإنسانيين، وعدم أخذ السياسيين وأصحاب المال والأعمال الموضوع على محمل الجد، بما قد يهدد بكوارث كونية، قد تودى بالكوكب إلى نهاية مأساوية.

*أولاً: ماذا يعنى التغير المناخي؟ (لمحة سريعة عن بداية الاهتمام بالقضية)

حسب التعريف الذي وضعته الأمم المتحدة للتغير المناخي، يعني: «يقصد بتغير المناخ التحولات طويلة الأجل في درجات الحرارة وأنماط الطقس. قد تكون هذه التحولات طبيعية فتحدث، على سبيل المثال، من خلال التغيرات في الدورة الشمسية، ولكن، منذ القرن التاسع عشر، أصبحت الأنشطة البشرية المسبب الرئيسي لتغير المناخ، ويرجع ذلك أساساً إلى حرق الوقود الأحفوري، مثل الفحم والنفط والغاز».

كما هو معروف في علمي المناخ والجيولوجيا، هناك تغيرات بطيئة تحدث فى بنية كوكب الأرض، تستغرق زمناً طويلاً بمقاييس الأزمنة الجيولوجية، تؤدى إلى تغيرات كيفية، وهو ما يفسره تلك التحولات الجيولوجية خلال ملايين السنين، وهذا أمر طبيعي مدعوم بالعلم من خلال الرصد والتجربة.. إلخ، لكن الإشكالية الحقيقية تكمن -كما أشار تعريف الأمم المتحدة- في: التغيرات التي تحدث بسبب نشاط الإنسان الزائد منذ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع التقدم الذى تحقق بشكل مذهل؛ ما أدى إلى تركز الغازات الدفيئة المسببة للاحترار (أو ما يُعرف بظاهرة الاحتباس الحراري) مثل: ثاني أكسيد الكربون وغيره، والتي نتجتْ، كما أشار التعريف، إلى حرق الوقود الأحفوري مثل الفحم والنفط والغاز.

*بداية الاهتمام بقضية التغير المناخي

بدأ الشعور بالتغير المناخي جذوره في ستينيات القرن الماضي، ولكن في التسعينيات، وفى بدايتها تحديداً، بدأ الحديث عن التغيرات المناخية، وما ستحدثه من آثار سلبية لها عواقب وخيمة على الكوكب برمته. وبدأ ذلك من قمة الأرض عام 1992م، التي نظمتها الأمم المتحدة في مدينة ريو دي جانيرو البرازيلية. وكان انعقاد أول مؤتمر للمناخ في برلين عام 1995م، ويبلغ عدد المؤتمرات التي عُقدت حتى الآن ستة وعشرين مؤتمراً (بمعدل مؤتمر كل عام) كان آخرها مؤتمر جلاسكو الذى عُقد في شهر نوفمبر / تشرين الثاني 2021م، وفي أثناء الانعقاد يتم اختيار البلد المضيف للمؤتمر المقبل، إذ تم اختيار مصر هذا العام (مدينة شرم الشيخ) ليعقد بها المؤتمر السابع والعشرون.

ونشير إلى أن أبرز المحطات من خلال هذه المؤتمرات: انبثاق اتفاقيات متعلقة بتقليل الانبعاث الحرارى، بدءً بـ كيوتو في اليابان، والتي نُسفتْ في مؤتمر باريس 2015م، وعادت السفينة أدراجها مرةً أخرى راسيةً على الشاطئ نفسه. وكانت الخلافات تتفجر غالباً بسبب: تخفيض الانبعاثات، والمبالغ المرصودة لمساعدة الدول النامية، والتي بلغت حسب التقارير 100 مليار دولار سنوياً لم ينفذ منها شيء. ورغم خيبات الأمل في هذه المؤتمرات، والبروتوكولات والاتفاقيات الإطارية؛ إلا أنّ البعض لايزال لديه بعض من التفاؤل من أجل إيجاد بيئة آمنة ونظيفة من جهة، وتقليل الانبعاثات من جهة أخرى، وهو ما نتمناه قطعاً. ولكن علينا أن نعى جيداً أن الرأسمالية كنظام اقتصادي واجتماعي مهيمن، تساهم في تعضيد شبكة المصالح للشركات المتعددة الجنسيات التي تفوق سيادتها سيادة الدول والحكومات، ومن ثم ما تقوم به من هدر للموارد وإضرار بالبيئة، كما في أمريكا اللاتينية، وغيرها من المناطق المهمشة في العالم الثالث.

*ثانياً: الإطار الاجتماعي للتغير المناخي

إلى الآن في عالمنا الثالث عموماً ومصر خصوصاً نفتقد إلى: دراسة التغيرات المناخية من منظور اجتماعي؛ أي فِهم التغيرات في البُنَى الاجتماعية وربطها بالتغيرات المناخية من جهة أخرى، وموصولة كذلك بالأساس الاقتصادي والانحياز الطبقي الذى يتخلل ويتماهى مع البنية الاجتماعية.

كنا بدأنا نرصد ذلك ليس من خلال التغيرات المناخية، بل من خلال الدور الأساسي الذى تلعبه الأمراض والأوبئة عبر التاريخ (وهي جزء من النسق الطبيعي) في خلخلة البُنَى الاجتماعية، وحتى انهيار إمبراطوريات ودول، واندثار مدن وقرى بالكامل، كما حدث في الوباء الأسود مثلاً (الطاعون في القرن الرابع عشر) الذى اجتاح منطقة حوض المتوسط والشرق الأوسط في العصور الوسطى.

بل يمكن أن نبدأ دراسة التحولات الاجتماعية مع تغير المناخ تاريخياً، كما حدث في مصر القديمة، عندما انهارت الدولة القديمة، ودخلت مصر في عصور الفوضى (عصر الاضمحلال الأول) وقد أثبتتْ الحفريات، ومن خلال علم تاريخ المناخ القديم والبيئة القديمة، حدوث تغيرات مناخية في تلك الحقبة (عصر البرونز الأخير 1600 أو 1550ق.م- 1200 ق.م) والذي مهّد للتحول إلى: عصر الحديد المبكر (-1200 1000ق.م).

هذه التحولات المناخية القديمة كان لها أثر سيئ؛ بسبب الجفاف الذى حل في منطقة الشرق الأدنى القديم في هذه الحقبة، وأدى إلى تدهور الزراعة، ومن ثم حدوث المجاعات، والتوترات الاجتماعية المصاحبة للأزمات الاقتصادية في هذه الظروف.

أما في عصرنا الراهن ونحن على أعتاب عقد جديد من الألفية الثانية، يمكن، بلا شك، أن تكون التغيرات المناخية عاملاً أساسياً في خلخلة البناء الاجتماعي، وتفاقم الأزمات الاقتصادية والاجتماعية مما يؤدى إلى حدوث اضطرابات وفوضى لا تنتهى.

فالتغير المناخي بالتأكيد له آثاره المباشرة وغير المباشرة على الزراعة (بوصفها مصدر الغذاء) كما أن له آثاراً مباشرة على وضعية البيئة والأمراض والأوبئة، والتلوث...إلخ، ما يفاقم من الأزمات الاقتصادية الموجودة أصلاً في بنية النظام الاقتصادي العالمي، والتي تفاقم بدورها أزمات الطبقات الكادحة من العمال والفلاحين الفقراء، والشرائح الوسطى والفقيرة من الطبقات الوسطى (التي تتآكل أصلاً) بفعل أجندات منظمات التمويل الدولية.

ثالثاً: لمحة سريعة عن التركيبة الاجتماعية في مصر

في نوفمبر /تشرين الثاني المقبل، سيعقد في مصر المؤتمر السابع والعشرون للتغيرات المناخية في منتجع شرم الشيخ، وبما أن مصر هي المضيف لهذه الدورة، يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الشق الرئيسي الخاص بالنساء، أن نتحدث عن شكل التركيبة الاجتماعية بشكل سريع ومكثف؛ لننتقل مباشرة إلى النساء.

مصر مجتمع طبقي، كأي مجتمع طبقي رأسمالي، لكن ما يميز مصر عن غيرها من المجتمعات الرأسمالية الأخرى، هو: أن الرأسمالية المصرية مقارنةً بنظريتها في البلدان المتقدمة تبدو متخلفة جداً، وتبدو تابعة وهشة؛ تعتمد على ريوع، ولا تحبذ الإنتاج الحقيقي؛ هذه الوضعية البنيوية للرأسمالية المصرية انعكست بدورها على قسمات المجتمع المصري وبنيته الطبقية: التي تتكون من (الرأسمالية الكبيرة- الرأسمالية المتوسطة- العمال- الفلاحين بفئاتهم:[أغنياء- متوسطون- فقراء- فلاحون أجراء بلا أرض]- الطبقة الوسطى

في المدن والأرياف)، هذه هي التقسيمة السوسيولوجية التقليدية للمجتمع أو الخطوط العام للبنية الاجتماعية، ولكن هناك شرائح اجتماعية عابرة للطبقات مثل الطلاب، وذوى الاحتياجات الخاصة.

وهناك شرائح جندرية (النساء) والمتحولون جنسياً، وهناك شرائح عابرة للطبقات أيضاً مقسمة حسب الميول الجنسية غير النمطية، أو ما يُعرف بـ «مجتمع الميم» بكل مستوياته وتلاوينه.

نحن هنا لسنا بصدد تفصيل البناء الاجتماعي والجندرى؛ لأنه يخرج عن خط الورقة الأساسي، ولكن كان قصدنا هو بناء تصور معرفي متدرج لفهم العلاقة بين التغيرات المناخية والنساء بشكل أعمق ومترابط قدر الإمكان.

***رابعاً: وضع النساء عموماً في ظل البناء الاجتماعي السائد في مصر**

تعانى النسوة في مصر من تمييز جندرى؛ بسبب ذكورية المجتمع، التي لا نستطيع بالطبع فصل جذورها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتمثل النساء الحلقة الأضعف داخل البناء الاجتماعي مع الشرائح الأخرى، سواء من ناحية جندرية أو اجتماعية أو جنسية.

والأكثر ضعفاً في شرائح النساء هن النساء العاملات بأجر، والنساء المعيلات وربات البيوت، والفلاحات الفقيرات في الأرياف، واللواتي يفترشن الأرض من أجل بيع حزمةٍ من الخُضر (الجرجير على سبيل المثال) أو غيره، أو بيع بعضاً من منتجات الألبان المُصنّعة داخل المنازل الريفية.

هناك مستويات متعددة للتمييز ضد النساء من أبرزه: التمييز الاجتماعي والجندرى؛ بوصف المرأة في التصورات السائدة كائناً أدنى وضعيف، لا يعوّل عليه، وهى رؤية لها خلفية دينية مصبوغة بعتاد من الثقافة الاجتماعية المتخلفة، والتي تصلبت عبر قرون وعقود بفعل تعثر مشاريع النهضة، وأزمة البناء الاجتماعي التي أشرنا إليها لمَمَاً في نقطةٍ سابقة.

فمثلاً في الأرياف: المرأة لا تحصل على ميراثها بشكل كامل، أو لا تحصل عليه أصلاً، رغم النصوص الصريحة في الشريعة حول إرث النساء (وإن كنا نريد تجاوزها أصلاً للمساواة الكاملة بين النوعين)، لكن حتى الحد الأدنى من ذلك لا يتحقق بشكل مرضٍ. وهناك مستويات أخرى من التمييز لا تتسع المساحة للحديث عنها.

وإذا كان النساء في مصر بهذه الوضعية غير الجيدة، فماذا بخصوص أثر التغيير المناخي عليهن؟

***خامساً: كيف يؤثر تغيير المناخ على النساء في مصر؟**

بحسب بوابة الأمم المتحدة: يؤثر المناخ المتغير على الجميع، لكن فقراء العالم ومَن هم في أوضاع هشة، وخاصة النساء والفتيات، هم الأكثر تأثراً بوطأة الصدمات البيئية والاقتصادية والاجتماعية. إذ إن النساء والفتيات نفسهن هن من أوائل من تَبنْين التقنيات الزراعية الجديدة، وأول المستجيبين عند وقوع الكوارث، وصُنّاع القرار المهمين في المنزل بشأن الطاقة والنفايات. لذا لا يمكن أن يكون العمل المناخي ناجحاً أو مستداماً إذا لم يشمل النساء.

النساء في مصر، وكما ذكرنا فى السابق، هن ضمن الطرف الأضعف في البناء الاجتماعي، والجندرى على السواء؛ لذا ستكون للتغيرات المناخية عليهن آثار سلبية (صحية وبيئية) فضلاً عن الأثر الاجتماعي؛ الذى يعنى مزيداً من التهميش والقمع.

لكن هل كل النساء يتعرضن لذات المخاطر الناجمة من التغيرات المناخية؟

الإجابة بالنفي، إذ لا يمكن أن نقارن امرأة في مصر تعيش في وضع معيشي مُرفّه، يوفر لها سبلاً للراحة والترفيه، والغذاء الجيد....إلخ، بامرأة معيلة أو عاملة أو موظفة أو فلاحة، تخرج يومياً لعملها، وترتاد أسوأ وسائل المواصلات (وتتعرض حتى للتحرش من آن لآخر)، أو تتعرض لأشعة الشمس الحارة فى أشهر الصيف القائظ، وخاصة في الأرياف. بالتأكيد حياة الفئات الثانية أكثر صعوبة من الأخريات، ومن ثمّ هنّ أكثر تأثراً بالتغيرات المناخية، وأكثر عرضةً للأمراض، وضعف جهازهن المناعي؛ وكل ذلك له انعكاساته السلبية على الجنين أثناء فترة الحمل؛ وقد يأتي الجنين أصلاً مشوهاً أو ضعيفاً.

ولذلك لا يمكن النضال من أجل بيئة آمنة، ووقف نزيف المناخ المزمن بدون أن يكن للنساء نصيبٌ فى ذلك؛ بإشراكهن فى المناقشات، وبإبراز أبرز الآثار السلبية التي يتعرضن لها من جراء تأثير التغيرات المناخية.

***خاتمة**

حاولنا بقدر المستطاع ملامسة الموضوع؛ على أمل أن يكون هناك دراسة مفصلة بشكل أكثر عمقاً، فهذه مجرد مقدمة طويلة تفتح مسام الموضوع من أجل ترطيب إشكالياته وتشابكاته المتعددة، وهنا نقترح بعض الخطوط العامة لربط النساء بالتغير المناخي.

1. القيام بورش بحثية من جميع التخصصات كخطوة أولى، تعمل في الموضوع ذاته، والتدريب على الاشتباك مع موضوع التغير المناخي والنساء نظرياً وعلمياً، ولا تقتصر هذه الورش على المراكز الحضرية، بل يجب التركيز أكثر في الأرياف والحوارى الشعبية.

2. حث الأحزاب السياسية على الاهتمام بقضية التغير المناخي والنساء، والاشتراك معها فى بلورة الأفكار والرؤى حول ذلك.

3. توظيف الفن بأدواته المختلفة (مسرح- سينما تحديداً) لطرح القضية بشكل فنى جميل ومشوق، يبث الرسالة بشكل غير مباشر وغير فج (مثل دعم إنتاج أفلام وثائقية في هذا الصدد- أو أفلام روائية قصيرة... إلخ)، وكذلك تنفيذ نصوص مسرحية تتناول القضية ذاتها.

4. ضرورة طرح القضية داخل المدارس والجامعات وإبراز أهميتها.

5. عمل الندوات وحلقات المناقشة والمؤتمرات بشكل مستمر كلما أمكن.

هذه كانت خطوط عامة؛ تحتاج لجهد وتطوير؛ علها تساعد فى بلورة الموضوع بشكل أكثر عمقاً وجاذبيةً.

ممدوح مكرم
باحث فى العلوم السياسية